مِنْ أَمْجَادِ الْجَزَائِرِ

(1962 - 1830)

سِلْسِلَة تَارِيخِيَّة ثَقَافِيَّة تَصْدُرُ عَنْ وَزَارَة الْمُجَاهِدِينَ

الشَّهِيد

بَنْ عُودَة بَنْ زَرْجَبْ

1956 - 1921

مَنْشُورَات مَتْحَف الْوَطَنِي لِلْمُجَاهِد

تصدير

تصدر هذه السلسلة التاريخية المخصصة للشهداء الرموز الذين يزخر بهم تاريخ المقاومة والثورة التحريرية، لتنير أمام الأجيال ولاسيما الشباب معالم درب النضال والجهاد الذي شقه ملايين الشهداء الأبرار بدمائهم الزكية، وعبدوه بأجسادهم الطاهرة ليكون معبرا للجزائر ولشعبها إلى الحرية والاستقلال.

تعد هذه السلسلة مساهمة من وزارة المجاهدين في بناء الذاكرة الجماعية وإثرائها، تعزيزا للجهود التي ما فتئت الدولة الجزائرية تبذلها من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية، ودعم تواصل الأجيال وتلاحمها.

أرجو أن يجد الشباب الجزائري في هذه السلسلة ما يروي عطشه لمعرفة تاريخ بلاده وتضحيات شعبه خلال المقاومة والثورة التحريرية التي تعتبر مرحلة هامة في تاريخه المجيد.

محمد الشريف عباس

وزير المجاهدين

حقوق التأليف والنشر محفوظة للمتحف الوطني للمجاهد 2009
ر . د . م . ك : 978-9961-884-34-8
الإيداع القانوني : 2009-5865

المتحف الوطني للمجاهد

BP 168 EL - MADANIA - ALGER
TÉL : 00.213.021.66. 92.08-65.45.06
FAX:00.213.021.66.91.54

ص .ب 168 – المدنية – الجزائر
الهاتف : 00.213.021 . 66. 92. 08 – 65 . 45. 06
الفاكس : 00.213.021 . 66 . 91 . 54

البريد الإلكتروني :Email: mnm@museenat-moudjahid.dz

الشهيد

بن عودة بن زرجب

1956 - 1921

فِي يَوْمٍ من أيَّامِ شَهْرِ جانفي 1956، تَوقَّفَتْ سَيَّارَةُ البُولِيس الفَرَنْسِيّ أَمَامَ عِيَادَة الطَّبِيب بن زرجب بن عودة بمَقَرِّ سُكْنَاهُ المَوْجُودة بحَيٍّ شَعْبِيٍّ في مَدِينَة تلمْسَانَ العَتِيقَة؛ أحَسَّ الجِيرَانُ وَبَعْضُ سُكَّانِ الحَيّ بِالسَّيَّارَة، فَدَفَعَهُم حُبُّ الاسْتِطْلاعِ إلى الخُروجِ إلى الشُّرُفَات، والشَّوَارِعِ القَرِيبَة من العِيَادَة؛ لِيَطَّلِعُوا على ما حَدَثَ. سَأَلَ أَحَدُهُم جَارَهُ قَائِلاً: ماذا وَقَعَ؟

رَدَّ عَلَيْه:

رَأَيْتُ شَخْصَيْن يَنْزِلاَن من السَّيَّارَة، وَيَدْخُلاَنِ العِيَادَةَ حيثُ يَسْكُن الطَّبيبُ.

الجَارُ الأوَّلُ:

لعَلَّهُمَا قَدِمَا إلى العِيَادَةِ، ليَتَلَقَّيَا العِلاَجَ على يَدِ الطَّبِيبِ.

الجَارُ الثَّانِي:

العِيَادَةُ قد أغْلقَتْ مُنْذُ مُدَّةٍ، ولَيْسَتْ مَصْلَحَةً اسْتعْجَاليَّةً، حتى يُنْقَلَ إليها المَرْضَى في أيِّ وَقْتٍ، وزِيَادَةً على ذلك، فهي مُخْتَصَّةٌ في طِبِّ الأطْفَالِ.

الجَارُ الأوَّلُ:

لَعَلَّهُمَا من أقَارِبِ الطَّبِيبِ، أو أصْدقَائه؛ لذلك قَصَدَا عِيَادَتَهُ في هذا الوَقْتِ المُتَأخِّرِ، ليَنْقُلاَهُ إلى مَنْزِلِ أحَدِهِما، من أجْلِ فَحْصِ طِفْلٍ مَرِيضٍ من أطْفَالِهِمَا؛ تَعَذَّرَ عليهما

نَقْلُهُ إلى العِيَادَة.

قَبْلَ انْتهَاء حَديثهمَا خَرَجَ الطَّبيبُ من عِيَادَتِه مُكَبَّلاً يَتْبَعُهُ الشَّخْصَانِ الغَرِيبَان.

قَالَ الجَارُ لجَارِه عنْدَما رَأى الطَّبِيبَ يَسِيرُ أمَامَهُمَا مُكَبَّلاً:

يا لَلْمُصيبَة! ماذا فَعَلَ الطَّبِيبُ ليُعَامَلَ بهذه المُعَامَلَةِ؟ لقد سِيقَ كما يُسَاقُ المُجْرِمُون.

الثَّانِي:

تُرَى كيف سيكونُ وَقْعُ هذه المُصيبَة على العَائلاَتِ التي يُشْرِفُ على عِلاَجِ أبْنَائِهَا؟

الأوَّلُ:

بَلْ، كَيْفَ سيَكُونُ على أفْرَادِ أسْرَتِهِ؟

انْتَشَرَ الخَبَرُ في الحَيِّ كانْتِشَارِ النَّارِ في الهَشِيمِ؛ النَّاسُ في كُلِّ مَكَانٍ يَقُولُونَ:

لقد أُغلقَتْ عيَادَةُ الطَّبيبِ بن زرجب، لأنَّ البُولِيس السِّرِّيَّ أَلْقَى القَبْضَ عليه.

بَعْضُهُم انْتَقَل إلى مَقَرِّ العيَادَة للتَّأكُّد من صحَّة الخَبَر؛ كَثُرَت التَّأويلاَتُ والإِشَاعَاتُ؛ البَعْضُ الآخَرُ قَالَ:

لَعَلَّ السُّلُطَات الاسْتعْمَارِيَّةَ اكْتَشَفَتْ بأنَّ الطَّبيبَ كان يُحَرِّرُ وَصَفَات طِبِّيَّةً للمُجَاهِدِين، الذين كان يَتِمّ عِلاَجُهُم في الجِبَال.

وآخَرُونَ قَالُوا:

يُمْكِنُ أَنَّهَا عَلِمَتْ بِذَهَابِهِ إلى مَخَابِئِهِمْ،

لِيُقَدِّمَ لهم العِلاَجَ بِنَفْسِه.

بَلَغَ الخَبَرُ خَطِيبَتَهُ "يمينة" فتَأَثَّرَتْ كَثِيراً، وتَحَدَّثَتْ مع صَدِيقَتِها "صفيّة" قَائِلَةً:

تَعَرَّفْتُ على بن عودة يَوْمَ أَخَذْتُ أَخي الصَّغِيرَ إلى عِيَادَته لِيُعَالِجَهُ؛ حين رَأَيْتُهُ لأوَّلِ مَرَّةٍ أُعْجِبْتُ بِأَنَاقَته، وجَمَالِ مَظْهَرِه، وتَرْتِيبِ مَكْتَبِه الذي يَدُلُّ على ذَوْقِه الرَّفِيعِ. كانت الابْتِسَامَةُ لا تُفَارِقُ مُحَيَّاهُ يَأسِرُ بها القُلُوبَ. بعد ذلك أَصْبَحْتُ أَتَردَّدُ كَثِيراً على مَكْتَبِه، كَمَا تَرَدَّدَ عليه الكَثِيرُ من الرِّجَالِ. رَأَيْتُ بن عودة ذات يَوْمٍ يَتحدَّثُ مع بَعْضِهِم، فَظَنَنْتُ أنّهم من زَبَائِنه، لَكِنِّي فُوجِئْتُ حينما شَاهَدْتُهُ يُسَلِّمُ سَاعَتَهُ الثَّمِينَةَ -الّتي أَهْدَيتُهَا لَهُ- لأحَدِهِم، فلمَّا سَأَلْتُهُ عن السَّبَبِ أَجَابَنِي

قَائلاً: إنَّ الفِدائيّينَ يَحْتَاجُونَها لضَبْطِ التَّوْقيتِ في تَفْجيرِ القَنَابِلِ، فكانتِ المُفَاجَأَةُ بهذا الجَوابِ أَشَدَّ.

صفيّة: لماذا تَفَاجَأتِ بهذا الجَوابِ؟

يمينة: لأنّي لم أكنْ أعْلَمُ من قَبْلُ أنَّهُ يَعْمَلُ مع الثَّوْرَة. وفي إِحْدَى الأُمْسِيَاتِ رَافَقْتُهُ إلى نَاحِيَة "صبرة" الوَاقِعَة بين تلمسان ومغنية، وفَجْأَةً تَوقَّفَتِ السَّيَّارَةُ، وطَلَبَ منِّي النُّزُولَ بأحَدِ المَسَاكِنِ القَرِيبَة من المَكَانِ، فلَمَّا رَأَى عَلاَمَةَ المُفَاجَأَةِ والاسْتِغْرَابِ بَادِيَةً على وَجْهِي قَالَ:

إنَّهُ سَيَلْتَقي بِبَعْضِ المُجَاهِدِينَ، ثم يَعُودُ لِيُوَاصِلَ الرِحْلَة، فأَصَابَتْنِي الدَّهْشَةُ من الخَبَرِ، ولَكِنْ سُرْعَانَ ما شَعَرْتُ بسَعَادَةٍ

تَـغْـمُـرُنِي، وكَـبُـرَ في عَـيْـنَـيَّ فَـارِسُ أَحْلاَمِي الذي ارْتَضَيْتُهُ زَوْجًا لِي.

صفيّة:

أَلَمْ يَعْرِضْ عليكِ العَمَلَ مع الثَّوْرَة؟

يمينة:

بَـلَى، لـقـد عَـرَضَ عَـلَـيَّ ذلك، وحَـقَّـقْتُ رَغْـبَـتَهُ، فَـجَـمَـعْتُ الأَمْـوَالَ لـفَـائِـدَةِ الـثَّـوْرَةِ وسَاعَدْتُهُ على عِلاَجِ المُجَاهِدِين.

صفيّة:

كيف خَفِيَ أَمْرُكُمَا على العَدُوِّ؟

يمينة:

بن زرجب شَـديـدُ الحَـيـطَـة والحَـذَرِ أَثْـنَـاءَ عَـمَـلِهِ مع الـثَّـوْرَةِ، ومع ذلك فـقـد أَلْـقَتْ

مَصَالحُ البُولِيس القَبْضَ عليه اليَوْمَ، فما هي التُّهْمَةُ التي وُجِّهَتْ له يَا تُرَى؟

إنّ الحَديثَ المُتَداوَلَ بين المُنَاضلينَ الذين كان الطَّبيبُ يُنَاضلُ معهم، يُفيدُ بأنَّهُ قد اشْتَرَى آلَةَ (رُونيوُ) لسَحْبِ ونَشْرِ الوَثَائِقِ والمَنْشُورَات الدِّعَائيَّة للثَّوْرَة، لكنَّ البُولِيس السِّرِّيَّ اسْتَطَاعَ العُثُورَ على الآلَةِ بِعِيَادَتِه؛ ممَّا أدَّى إلى اعْتِقَالِه.

وتَتَلَخَّصُ مُجْرَيَاتُ حَادثَة اعْتقَاله في الرِّوَايَة التّالية: ذَاتَ يَوْمٍ دَخَلَ أَحَدُ زُمَلاَئه إلى المَكَان الذي كَانُوا يَلْتَقُونَ فيه، وبِيَدِه جَريدَةُ "صَدَى وَهْرَان" (L'Echo d'Oran) الَّتي كانت تَصْدُرُ بِمَدينَةِ وهران، فلمَّا رَأَوا الجَرِيدَةَ

بِيَدِهِ، سَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنْهُم:

هل نَـقَـلَتِ الجَـرِيـدَةُ أَخْـبَـاراً جَـدِيـدَةً عنِ الثَّوْرَةِ؟

- نَعَمْ، ولَكِنَّهَا أَخْبَارٌ لاَ تَسُرُّ.

- ما هِيَ؟

فَـتَحَ صَفَحَاتِ الجَرِيدَةِ، وقَرَأَ عليهم الخَبَرَ الآتِي:

«عَـلِمَتْ مَـصَالِحُ البُولِـيس بـأنَّ صَاحِبَ مَـطْبَعَـةٍ بـتلمْسَان، اشْتَرَى آلَتَيْ سَحْبٍ من نَـوْعِ "رُونِـيُـو"؛ وَاحِدَةً من وهران، والأُخْرَى من العاصمة، فلمَّا أَجْرَتْ تَحْقِيقًا معه حَوْلَ اسْتِعْمَالِ الآلَتَيْنِ أَنْكَرَ شِرَاءَ الآلَةِ الأولَى من مَحَلٍّ وهران".

عَقَّبَ أَحَدُهُم على الخَبَرِ قَائِلاً:

وما الذي لا يَسُرُّ في هذا الخَبَر؟

رَدَّ عليه آخرُ:

الخَوْفُ أن يُكْتَشَفَ أَمْرُ الطَّبِيبِ بن زرجب الذي اشْتَرَى آلَةَ السَّحْب.

الثَّانِي:

أَنَسِيتَ أَنَّ الآلَةَ تَمَّ شِرَاؤُهَا بِاسْمِ صَاحِبِ المَطْبَعَةِ، ولَيْسَ بِاسْمِه الشَّخْصِي؟

- لَمْ أَنْسَ، ولكنَّ البُولِيس لن يَتَوقَّفَ عن البَحْثِ عنها حتى يَعْثُرَ عليها.

- الطَّبِيبُ يُطَالِعُ الجَرَائِدَ اليَوْمِيَّةَ، ولاشَكَّ أَنَّهُ قد اطَّلَعَ على هذا الخَبَرِ، وأَخَذَ احْتِيَاطَهُ، فَأَخْفَى الآلَةَ في مَكَانٍ

لاَيَصِلُ إليه البُولِيس.

– هذا إذا لم تَكُنْ قُوَّاتُ البُولِيس قد أَلْقَتِ القَبْضَ عليه قَبْل نَشْرِ هذا الخَبَر.

فعْلاً لقد أَلْقَى البُولِيسُ القَبْضَ عليه قَبْلَ صُدُورِ الجَرِيدَة، وطَلَبَ ضَابِطُ البُولِيس من أعْوَانه أن يُطْلِعُوه على كُلِّ كَبِيرَةٍ وصَغِيرَةٍ حَوْلَ مَاضِي الطَّبِيب، وبعد أيَّامٍ قَلِيلَةٍ قَدَّمُوا له مِلَفًّا وَافِيًا بِكُلِّ المَعْلُومَات التي طَلَبَها. وبعد الاطِّلاَعِ عليه شَرَعَ في اسْتِنْطَاقِهِ بَعْدَ مُثُولِهِ أَمَامَهُ:

الضَّابِطُ: مَا اسْمُكَ؟

الطَّبِيبُ: بن عودة بن زرجب.

الضَّابِطُ: كَمْ عُمُرُك؟

الطَّبِيبُ: 35 سنَةً.

ومن خلاَل المِلَفِّ تَبَيَّنَ لِلضَّابِطِ بأَنَّهُ من مَوَالِيد 09 فبراير 1921 بتلمسان، تَعَلَّمَ بالمدرسة الابْتِدَائِيَّة بسالان (ابن خلدون حَالِيًا) بمَدِينَة تلمسان، ثُمَّ بالثَّانَوِيَّة بنَفْسِ المَدِينَة، زِيَادَةً على حُصُولِه على شَهَادَةٍ في الطِّبِّ في 5 جويلية 1948 من إِحْدَى الجَامِعَاتِ الفَرَنْسِيَّة.

الضَّابِطُ: لماذا تَنَكَّرْتَ لفرنسا التي عَلَّمَتْكَ حتى تَحَصَّلْتَ على أَعْلَى الشَّهَادَات؟

الطَّبِيبُ: ولماذا تَنَكَّرَتْ فرنسا لتَضْحِيَات الجزائريّين في حَرْبِهَا ضدَّ ألمانيا، وكَافَأَتْهُم بأَنْهَارٍ من الدِّمَاءِ في الثَّامِنِ ماي 1945؟

الضَّابِطُ: هذه أَفْكَارُ "الفَلاَّقة" [التَّسْمِيَةُ التي أَطْلَقَها العَدُوُّ على المُجَاهِدِين]، ما هي طَبِيعَةُ عَلاَقَتِكَ بهم؟

الطَّبِيبُ: أنا طَبِيبٌ كَمَا تَعْلَمْ، لا أُفَارِقُ عِيَادَتِي إلاّ عندما يَتَطَلَّبُ الأَمْرُ التَّنَقُّلَ إلى المَرْضَى في الحَالاَتِ التي يَتَعَذَّرُ عليهم الانْتِقَالُ إلى العِيَادَة.

الضَّابِطُ: لماذا إِذَنْ اشْتَرَيْتَ آلَةَ "رُونِيُو"؟

الطَّبِيبُ: القَانُونُ يَسْمَحُ لي باقْتِنَائِها.

الضَّابِطُ: ماذا تَسْحَبُ بها؟

الطَّبِيبُ: أَسْتَعْمِلُهَا في مَهَمَّتِي اليَوْمِيَّة.

الضَّابِطُ: هل لَدَيْكَ أَقْوَالٌ أُخْرَى؟

الطَّبِيبُ: لاَ شَيْءَ.

بَعْدَ الانْتِهاءِ من التَّحْقيقِ مَعَهُ قَالَ الضَّابِطُ لِمُسَاعِديه: خُذُوهُ إلى السِّجْنِ، في انْتِظَارِ الحُصُولِ عَلَى المَعْلُومَاتِ والأدِلَّة التي تُثْبِتُ جَرِيمَتَهُ.

كانت الإشَاعَاتُ تَدُورُ حول نَفْيِ الطَّبِيبِ أو مُحَاكَمَته، ولكنَّ إعْدَامَهُ كان مستَبْعَداً، فلمَّا عَلِمَ سُكّانُ تلمسان بإعْدَامه يوم 17 يناير 1956 بدُوّار أولاد حليمة بالقُرْبِ من "سَبْدُو"، خَرَجُوا إلى الشَّوَارِعِ منَدِّدِينَ بهذه الجَرِيمَةِ الشَّنْعَاءِ في حَقِّ طَبِيبِهم؛ دَامَ الاحْتِجَاجُ يَوْمَيْنِ؛ أغْلَقُوا خلاَلَها مَحلاَّتهم التِّجَارِيَّةَ تَعْبِيراً عن تَضَامُنِهم مع الطَّبِيبِ وحُزْنِهِم عليه.

وقد كَتَبَتِ الصِّحَافَةُ الدَّوْلِيَّةُ عن هذه

الجَرِيمَة، وأَدَانَتْها بشدَّة. وفي نَفْسِ الوَقْتِ وَجَدَ فِيها الطَّلَبَةُ الجزائريّون دَافِعًا قَويّا للاسْتِجَابَةِ لنداء جَبْهَةِ التَّحْرِيرِ الوطَنّي الدّاعِي إلى إِضْرَابٍ عَامٍّ في 19 ماي 1956، ومُغَادَرَةِ مَقَاعِدِ الدِّرَاسَةِ للالْتِحَاقِ بالثَّوْرَة.

وهكذا كانت نِهَايَةُ بن زرجب الذي يُعَدُّ من النُّخْبَة الْمُثَقَّفَة، التي لَبَّتْ نِدَاءَ الفَاتِحِ من نوفمبر، وأَوَّلَ طَبِيبٍ جَزَائِرِيٍّ سَقَطَ في مَيْدَانِ الشَّرَف.

المجد والخلود لشهدائنا الأبرار